التعــــريـــب والازدواجيــة اللغــويــة في تــونس

(من خــلال بعض البحــوث الحــديثــة)

اصدر مركز البحــوث الاقتصاديــة والاجتماعيــة بتــونس الكــراس الثالث من السلسلــة اللغــوية فى نوفمبــر 1970 (213 ص) وهو خاص بدراسة بعض اوجه الازدواجية اللغــوية فى تونس (1) ، ويضم ثلاثة بحــوث :

1 ـ **رشاد الحمزاوي** : تعــريب وزارة الداخليــة ص 11 ـ 73 + ملحــق ص 75 ـ 97 (يضم صورا لبعض الوثائق التي اعتمدتهــا الدراســة)

2 ـ **زهرة الرياحي** : استعمــال تــلامذة الثانوي للعــربيــة والفــرنسيــة ص 99 ـ 165 (يضــم 19 جــدولا) .

3 ـ **الحبيب العونلي** : لغــة الطلبــة ـ ص 167 ـ 213 (يضم 10 جداول) .

وقد صادف ظهور هذه النشــرية احتــدام النقــاش فى موضــوع التعــريب والازدواجية ، فرأينا أن نقدم هذه البحوث ، لا للتعريف بها فحسب ، وانما خاصة لتحليــل ما تضمنتــه من وصف مجــرد لبعض المظاهر اللغــوية فى تونس وما يمكن ان تثيره من مشاكل وتوحي به من افكــار تتعلق بظاهرة الازدواجيــة اللغــوية وتبعــا لذلك ، بمشكلــة التعريب ، وما ذلك الا لايماننــا بضرورة وصف الواقع اللغــوي التونسي من جميــع جوانبه بالطــرق العلميــة الخاليــة من كل عاطفة أو تعصب حتى يمكن فهم هذا الوضع كما وكيفــا ليمكن بعد ذلك التأثير فيــه ، ومعالجتــه بانجع الوسائل واسلمهــا حتى نسلــم من خطــرين الانبتــات من ناحيــة وعقليــة عصور الانحطــاط من ناحيــة أخرى وان ايجــاد التوازن الضــروري لابطال هذين الخطــرين اصبح امــرا حيــويا ، وهو لا يتم الا بالموضوعيــة والنــزاهــة فى معالجة المشاكل بعــد فهمهــا وتحليلهــا تحليــلا مجــردا .

وان هذه البحــوث لترمي الى هذا التحليل قبل كل شيء ، وتستحق فيمــا نعتقــد ان توضع فى هذا الاطار باعتبــارها محاولة ومشاركــه فى تصوير واقع لغوى معقــد ، يخرجنا من الاحساس الغامض بالحدس والتخمين ، الى المعــرفة الصحيحة بالاحصــاء والارقــام .

تحــــليل البحـــوث

تحليـــل البحـــث الاول :

يتميز البحث الاول بانه لا يصور واقعا لغويا قديما موروثا ، وانما يصور واقعا جــديدا ، ناتجــا عن تجــربة تتمثــل فى تعــريب احدى الادارات التونسيــة فى نطاق وزارة الداخليــة ، وهي ادارة حــرس المــرور .

---

(1) Quelques aspects du bilinguisme en Tunisie. Cahiers du C.E.R.E.S, série linguistique 3 novembre 1970, 213 p.

وقد بدأ صاحبه بتقديم المشكل تاريخيا (9 ص) ، وذلك بالرجوع الى عهد الحماية حيث كانت مسألة التعريب مندرجة فى نطاق المطالب الوطنية عموما ، ولكنها اخذت شيئا فشيئا تتميز بالمرونة والواقعية مراعاة للاوضاع والمصاعب .

ثم حدد بعد ذلك **اختيارين** فى موضوع البحث (15 ص) ، معللا حصر الأختيار الأول فى وزارة الداخلية بانعدام التقاليد العربية فى هذه الوزارة قبل الاستقلال اذا ما قورنت بوزارة العدل . اما الاختيار الثاني ، فاننا نجد فيه تحليلا لخصائص ادارة الحرس الوطني اكثر مما نجد تعليلا ولا سيما انه كان يمكن زيادة اختيار ثالث يتعلق بحرس المرور الذي هو موضوع البحث الاساسي .

ويحلل القسم الثالث (4 ص) **وسائل التعريب** البشرية وكذلك المادية المتمثلة فى مدرسة الحرس الوطني والمكتبة ، وفيه جدولان يبين اولهما مواد الدراسة وساعاتها ويضبط ثانيهما مطالعات الحرس باللغتين العربية والفرنسية حسب المواد . وهما يستحقان تعليقا استنتاجيا يبين اهميتهما بالنسبة للبحث اي من حيث اهمية دورهما فى التعريب .

ويعدد القسم الرابع — وهو يقع فى صفحتين — الوثائق المكتوبة التي اعتمدت فى البحث وهي « المقتطعات المالية » و « دفاتر الخدمة » و « دفاتر التصريحات » و « المحاضر » و « متفرقات » مشيرا الى انها تجسم مختلف مراحل التعريب . واننا نعتقد ان تحليل هذه المراحل من اهم ما يجب القيام به فى المستوى اللغوى للمس قيمة هذه التجربة فى التعريب بفهم اتجاهها وتتطورها وتبين مدى نجاحها حتى تكون من المعايير فى هذا المجال .

— اما القسم الخامس الاخير وهو اضخمها واهمها (33 ص) فهو خاص **بالوصف اللغوى** وينقسم الى خمسة محاور رغم ان فقراته غير واضحة تمام الوضوح احيانا :

يتضمن المحور الاول (6 ص) مشكلة **الرسم** ، رسم الكلمات العربية ، الفصيحة والعامية ، ورسم الكلمات الاجنبية بالاحرف العربية . وقد استعملت للتعبير عن هذا المفهوم الواحد ثلاثة مصطلحات فرنسية (2) حملت من المعاني مالا تحمله فى الواقع ، ودون حاجة الى ذلك ولاسيما ان الكلمة الثالثة بدت فى التبويب مقابلة للاولى ، بينما قصد الكاتب فيما يبدو مقابلة الثانية للثالثة فى نطاق محور واحد عبر عنه بالكلمة الاولى . وكان يحسن فى نظرنا — اجتنابا لهذا الغموض والالتباس — الاقتصار على اللفظ الثالث مع اضافته الى اللغة المقصودة .

ثم ان الامثلة العديدة التي قدمت فى نطاق هذا المحور ، باعتبارها اغلاطا رسمية ، تمثل مادة هامة جدا يمكن ان تحلل تحليلا لغويا مفيدا ويمكن ان تثير مسألة صلاحية الخط العربي التقليدي لرسم لغة ادارية شديدة التأثير بالعامية خاصه وكذلك بالفرنسية . وان الاضطراب الموجود فى ذلك ليدل بوضوح على الحيرة والتردد وعلى انناازاء لغة مازالت تبحث عن نفسها حتى فى الرسم . كما ان عددا كبيرا من هذه الامثلة لا يخضع للرسم وانما يرجع الى اسباب صوتية محضة ، تستحق تحليلا وتعليلا مستقلين ولاسيما ما يتعلق منها بالحركات التي لا شيء يدل عليها فى وثائق غير مشكولة مما يجعل درسها علميا غير ممكن .

ويتعلق المحـور الثاني (16 ص) **بالنـاحية الصرفيـة** . الا انه ليس دراسـة صرفية ، وانما هو شبه معجم يضم عددا كبيرا من الصيغ والكلمـات الواردة في الوثائق مبوبة حسب ابنيتهـا الصرفيـة وتضم مختلف مشتقـات المجـرد حسب الترتيب الالفبائي ، متبوعة بمشتقات الافعال المزيدة ولاسيما اسماء الفاعل والمفعول والمصادر . ولانجد ذكرا للأسباب الداعية الى طرح الافعال قصدا والاقتصار على المشتقات التي تتفاوت في قيمتهـا الاسميـة

وينتهي هذا المحور ببعض الملاحظات المتعلقـة بالمحاكاة اللغوية ، مدعمة بامثلة من قانون الطـرقات ، والترادف ، المتمثل في اعطاء الكلمـة الاجنبيـة مقابلين او اكثر في العربية ، وهذه الظاهرة في حاجة الى تحليل ، واخيرا الشرح الذي هو حل السهـولة عندما لا يتوفر لفظ مقابل للمصطلح الأجنبي .

اما المحور الثالث (6 ص) فيتعلق **بالنحـو** وتدور الامثلة المقدمة حول الاغلاط الاعرابية من ناحية والجملة من ناحية اخرى بتركيز امثلة الجمل على المحاكاة والقوالب المبتذلة . وكل هذه الامثلة في حاجة الى تبويب وتحليل .

ويتعلق المحور الرابع (صفحة واحدة) **بالدخيـل** . ولانجد درسا للالفاظ الدخيلة وانما نجد ملاحظات حول استعمـال بعض المصطلحـات الطبيـة المتعلقـة بالفحوص والتقـاريـر .

اما خامس هذه المحاور وآخرها (صفحـة ونصف) فيتعلق **بالخصائص اللهجية** في تقارير الشرطة ولانجد هنا ايضا بحثافي تاثير اللهجة التونسية في عربية الشرطة في مستوى الالفاظ والابنية والتراكيب والتعابير ، وهو ميدان زاخرثرى ، وانما نجـد خاصة اثارة لمشكل هام يتمثل في تردد الشرطة بين تسجيل تصريحات الناس بلغتهم التونسية وبين ترجمتها الى العربية وما ينتج عن ذلك من تأويل وتحريف قد يكون له تأثير في الاحكام الصادرة . وحتى عندما تسجل التصريحات بأمانة فان الرسم العربي الذي جعل للغـة مختلفـة ، لايؤديها بكامل الامانة ايضـا .

وفي الخاتمة لاحظ الكاتب ان « لغة الحرس » تمثل تداخلا بين الفصحى والعامية . واستنتج من هذا وجود ثلاثة مستويات من العربية « الفصحى » . عربية الادب وعربية الصحافة وعربية الادارة المتأثرة بالصحافة ، وقد اعتبر الكاتب لغة الادارة حلا وسطا بين الفصحى والعـامية وصفه بأنه « لغة ثالثة » تمثل العربية « الوسطى » الشائعة .

ونحن لا نوافق الكاتب على ذلك لان لغة الادارة لا تمثل الا مستوى فنيـا لا يمكن ان يكون شائعا أو ان يتخذ نموذجا للغة عصرية ، خلافا للغة الصحافة ذات الاثر العميق في تطوير اللغـة لمـالهـا من انتشـار .

وكنا نود ان تقع الاشارة في الخاتمة الى جوهر المشكل وهو التعريب ، فما هي حدود هذه التجربـة في التعريب الاداري ، وما هي قيمتهـا الذاتية ؟ ما هي ايضا فوائدها ومضارها ان وجدت ؟ هل المنهاج الذي اتبع في حاجة الى المواصلة ام الى التغيير او التنقيح والتعديل ؟ والى اي حد يمكن لهذه التجربة ان تكون نموذجا لغيرها في سائر الادارات ؟

---

(2) a) Ecriture, l'orthographe,
b) transcription.

ان صعوبة تقييم هذه التجربة علميا بالاجابة عن مختلف هذه الاسئلة التي تخامر ذهن قارىء البحث عند الانتهاء منه ، ترجع الى مالمح اليه الكاتب نفسه (ص 72) من ان لغة الحرس ، بما فيها من مستويات وتداخل بين الفصحى والعامية في حاجة الى تحديد وتدقيق وهو مايجعل قيمة هذا البحث تتمثل خاصة في مادته الغزيرة المتنوعة وفي محاولة تبويبها . فهذه المادة الثرية جديرة بان تكون موضوع بحث لغوي يحلل كنه هذه اللغة ويحدد ابعادها . وان لنافي الختام على الكاتب بعض المآخذ الطفيفة المتعلقة بهيكل البحث فنحن نلاحظ من خلال اقسام البحث ومحاوره تفاوتا كبيرا بينها لا تبرره اهمية المحاور لعل بعض ذلك يرجع الى ان الكاتب فضل الاختيار على الاستيعاب فاهتم ببعض النواحي اكثر من البعض الآخر ، الا انه افرط في تحليل الاختيارات التي هي نوع من التقديم اذ استغرقت ربع البحث . ثم ان اهمية الفقرات لا تبين احيانا بوضوح اضطراب العناوين وطريقة ترقيمها كما يظهر ذلك ص 31 (حيث « اولا » بدون « ثانيا ») و 36 و 37 (حيث تتداخل الحروف والارقام) ، وكذلك بين ص 41 و 44 . وقد تكون رداءة الطباعة مسؤولة عن بعض ذلك . ولئن كان القارىء يتعثر احيانا ، فان ذلك لا ينقص كثيرا من الفائدة التي تحصل له وهو يتابع تفكير الكاتب ويتامل عديد الامثلة التي يعرضها عليه .

اما الملحق الواقع في 22 صفحة والذي يضم تقريبا عشرين وثيقة مصورة فانه يبدو كالزائد او الخالي من الفائدة لا فتقاره الى تعليق او تقديم يبين الغاية منه واساس الاختيار ولاسيما ان بعض الوثائق لا يكاد يقرأ . ولعله كان من المفيد ان تقع الاحالة عليها اثناء المقدمة التاريخية فتكون مرجعا يدعم البحث . الا انها رغم ذلك تدل على ضخامة المجهود الذي بذله الكاتب لاستقرائها .

تحليل البحث الثاني :

يعتمد هذا البحث المتعلق بلغة تلامذة الثانوي ، تحقيقا اجري في اواسط سنة 1968 بثلاثة معاهد ثانوية بالعاصمة ، اثنان للفتيات وواحد للفتيان . وقد تم استجواب مائة تلميذ (68 فتاة و 32 فتى) من السنتين الخامسة والسادسة آداب عصرية وعلوم من شعبة « ب » ، وهي اهم الشعب كما انها تضم التلامذة الذين تتساوي قوتهم في اللغتين العربية والفرنسية مبدئيا وان كان جانب الفرنسية فيها اوفر بكثير . فهي اذا شعبة الازدواجية اللغوية المثلى (خلافا لشعبة « ء » العربية و « ج » الفرنسية) . وينقسم البحث الى ثلاثة اقسام كبرى يمكن ارجاعها الى المحاور الاربعة التالية :

1 — اللغة التي يستعملها التلامذة في **الوسط العائلي** (12 ص) : في مستوى القول ، اي الحديث ، يستعمل اغلب التلامذة اللهجة التونسية الا بالنسبة لمن يعيشون في وسط مثقف ، فانه يغلب عند ذلك الخلط بين اللغتين . غير انه خلط لا يشوه الهياكل النحوية الخاصة باللغة التونسية حتى نعتبر هذا الخلط « لغة مزيجا » من نوع « السبير » .

الا انه من الغريب ان ثلث التلامذة يؤكدون انهم يستعملون الفرنسية عندما يكونون في حالة غضب او حالة اخرى من حالات الانفعال . ونحن نعتقد ان في هذا التأكيد مبالغة ترجع الى ظن التلامذة في هذا المستوى : انهم يتكلمون الفرنسية حين يستعملون بعض الكلمات في لغتهم اليومية . واللجوء الى كلام اجنبي في حالات البذاءة وما يتصل بها ، يرجع في ما يبدو لنا الى ظاهرة الكناية والتورية لغاية التلطيف وبدافع الاحتشام

اللاشعـوري . فالكلام الاجنبي ليس له نفس الشحنـة العاطفيـة التي تكـون للغـة الانسان الاولى . وهذه ظاهرة طريفة يمكن ان تدرس من حيث علم النفس وعلم اللغة .

— اما فى مستوى المكتوب ، اي التراسل مع افراد الاسرة ، فان الاجوبة تدل على انه اذا توفر الاختيار ، يميل التلامذة الى استعمال الفرنسـة . وهذه الظاهرة ليست هي السبب فى ضعف نسبة الذين يراسلـون اسرهم كما يبدو من استنتـاج البحث وانما يرجع ولاشك الى الظروف الخاصة التي لم تقع الاشارة اليها ايضا مطلقا ، فقد كان من الواجب النظر فى نسبة من لا يعيشون وسط اسرهم لتبرير الحاجة الى المـراسلـة .

وقد ركزت خاتمة هذا القسم على ابراز نزعة التلامذة الى تفضيل الفرنسيـة ولاسيما لدى الفتيات . ونحن نرى ان هذه الظاهرة ترجع الى عاملين جوهريين :

— يتعلق الاول بنزعة عامة ، تتمثل فى الميل الطبيعي الى استعمال لغة هي فى نفس الوقت لغة دراسة ولغة عمل بالاضافة الى انها لغة ثقافة . فلا يمكن ان يعاب على الشباب التونسي استعمال الفرنسيـة فى الحديث لأن السيـاسة التـربوية قد منحت هذه اللغة اهمية تفوق اهمية اللغة القومية اضعافا وهو ما جعل التونسي يعيش فى جوتطغى عليه الفرنسيـة من كل جانب ولا يمكن ان يسلم من تاثير ذلك الجـو .

— اما العامل الثاني المتعلق ببروز هذه النزعة بصفـة أقوى لدى الفتيـات ، فانه يتمثل فى تعلق الفتيات عامة بكل ما هو عصري مميـز ، والفرنسيـة مظهر من مظاهر العصرية فى مجتمع كالمجتمع التـونسي .

2 — اللغة المستعملة فى الوسط المدرسي (23 ص) .

ان الظروف المدرسية لمما يساعد على استفحال الازدواجية . كانت العربيـة تفوق الفرنسيـة فى برامج السنوات الثلاث الاولى من التعليم الابتدائي فان الفرنسيـة تاخذ فى التفوق ابتداء من السنة الرابعة ، ويتواصل ذلك تصاعديا فى الثانوي والعالي حيث يصبح البـون شاسعـا والهـوة عميقـة .

ونظرا لندرة قدرة التلاميذ على التعبير عن افكارهم فى كلتا اللغتين بنفس المقدرة فان اغلبهـم يستعين باحدى اللغتين على فهم الـدروس الملقـاة بالاخرى . ويتبين من الاحصاء ان نسبة الذين يستعينون بالفرنسية لفهم درس عربي تساوي ضعف نسبة الذين يستعينون بالعربية لفهم درس فرنسي . ونجد نفس النسبة لدى الذين يجدون صعوبة فى مستوى فهم الالفاظ وهو تقريبا خمسون فى المئة من المستجوبين . ويدل على ضعف فادح فى رصيدهم اللغـوي الادبي وهو ما يلجئهـم الى الاستعانة بالفرنسيـة والعاميـة . ونحن نرى ان ذلك يرجع الى ان جل المفردات التي تعلمـوها ليست مما يحتاجون اليه فى الحياة العملية او للتعبير عن افكارهم العصرية . ويرجع هذا ولاشك الى خلل فى الاختيارات الادبية وانتقاء النصوص الملائمة الى جانب عوامل اخرى اكثر تشعبا تفسر انعدام الحافز . وينتج عن كل ذلك سوء فهم للدروس ، وعجز عن التعبير فى المقول والمكتوب يزيده التمزق بين الفصحى والعامية استفحالا .

اما فى حديث التلاميذ فيما بينهم خلال الدروس من ناحية ومع الادارة من ناحية اخرى ، فان الخليط اللغوي يسود . وانه لجدير بان يدرس من حيث تركيب الجمل . الا ان الفرنسية تتفوق هنا ايضا لاسباب لغوية ونفسية : فالفصحى لغة كتابة ، والعامية لغة الشعب والألفة ، بالاضافة الى أنها قد تكشف عن خبايا الشخص فتدل على نسبته

الجغرافية والاجتماعية . وهكذا فان العامية تكسر الحدود القائمة بين التلميذ والمسؤول وتبدد الهالة التي يحيط بها المسؤولون أنفسهم . فليس « أسلم اذن من الفرنسية » ، والحال هذه لانها « لغة الحياد » . وينتج عن كل هذه الاعتبارات أن ثلاثة ارباع التلاميذ يعتبرون الفرنسية اجدى من العربية واكثر ضرورة لتكوينهم الفكري والفني تكوينا عصريا . وهكذا نرى أن المدرسة وسط ملائم جدا لانتشار الازدواجية .

3 — فى **مستوى الاصدقاء** (8 ص) نجد تقريبا نفس النسبة السابقة . الا انه من الهام ان نلاحظ ان اكثر من ثمانين فى المائة فى هؤلاء التلامذة يعترفون بانهم يعبرون عن عواطفهم بالفرنسية فى الكتابة — وان تساوت النسبة بين العامية والفرنسية فى الحديث — وتقول فتاة من السنة الخامسة فى ذلك « اني استطيع ان اقول كل شيء بالفرنسية **بدون احتشام** واشعر انني **أكثرحُرية** » . (3) .

4 — اما المحور الاخير (15 ص) فيتعلق **بالاختيارات اللغوية الذاتية** ومواقف التلامذة ثقافيا . ويستنتج من الاجوبة ان ثلاثة ارباع التلاميذ يطالعون الجرائد الفرنسية وان نسبة ارفع تطالع الكتب الفرنسية . وبعض هؤلاء يصف العربية بانها لغةميتة . ثم ان ثلثي التلامذة يفضلون كتابة مذكراتهم وآثارهم بالفرنسية ان شعروا يوما بالقدرة على ذلك . ولايرى الا العشر أن العربية صالحة لكل ميدان .

ويظهر من مختلف الاجوبة ان التلاميذ يشعرون بضيق وقلق فى المستوى اللغوي يرجع الى احساسهم بالضعف فى كلتا اللغتين نسبيا . فالازدواجية اذا عممت دون مراعاةاختلاف المستويات الذهنية واقيمت على تعادل اللغتين ولو نظريا فانها تسيء اكثر مما تفيد وتؤدي فى اغلب الاحيان الى الحصر والرتج والاضطراب والتذبذب . وكل هذا يفسر تردد التلامذة فى تحديد الثقافة التي ينتمون اليها ، فاكثر من الخمس امسكوا عن الاجابة ، بينما الثلث ذكر انه ينتمي الى الثقافة الفرنسية .

ولئن كانت نتائج هذا البحث غير قابلة للتعميم نظرا لقلة المستجوبين وانعدام تنوعهم اجتماعيا وجغرافيا ، فانها تعطي صورة صحيحة فى خطوطها الكبرى عن واقع صنف من الشباب التونسي .فهذا الشباب لا يعارض الازدواجية مبدئيا ، لانه مقسم بين شعوره القومي تجاه العربية ورغبته في استعمال أداة لغوية طيعة عصرية هي الفرنسية التي لم يعدالتونسي يشعر ازاءها بمركب النقص المميز للمستعمر . لذلك يعبر التونسي عن اعجابه بالفرنسية بدون تحفظ لان عهد الاستعمار قد ولى ولم تعد اللغة نتيجة لذلك مطلبا قوميا ووسيلة من وسائل مقاومة المستعمر .

وقد ركز البحث فى الخاتمة (4 ص) على الثنائية المتمثلة فى الفصحى والعامية والتي تزيد مشكل الازدواجية تعقيدا ولاسيما ان الفارق بين الفصحى والعامية كبير يحتاج الى دراسة علمية تضبطه حتى لاتكون الاحكام ملقاة جزافا . وقد ادى هذا الموضوع الى شيء من الاسهاب فى الحديث عن الموضوع الثقافي التونسي .

تحليـــل البحث الثـــالث :

أجري هذا البحث لمعرفة المشاكل التي تعترض الطلبة فى المستوى اللغوي والطرق التي يعالجونها بها والمواقف النظرية والعمليـة التي يتخذونها ازءها وذلك بفضل استجواب قدم باللغتين العربية والفرنسية ، وينقسم الى قسمين كبيرين جعلا فى البحث ثلاثة دونمـا مبـرر ظـاهـر .

---

(3) من البديهي ان التربيـة التي تعتمد الكتب بانواعه تؤثر حتما فى اللغـة فاذا الكلمات العاطفية تصبح فيها ثقيلة على اللسان لذلك يلجأ المتكلم الى لغة أجنبية تبدو له ألطف .

اولا — ظروف الطلبة اجتماعيا وثقافيا :

وهو قسم فى الواقع تمهيدي ، يواصل المقدمة التي تحدد الموضوع وتضبط المنهجية المتبعة فى البحث (3 ص) .

لم يذكر الكاتب عدد الذين استجوبهم ولا توزعهم على الكليات وهو سهومخل كما ان الجدول الاول الذي يضبط اللغات التي يستعملها الطلبة ودرجة اتقانهم لها بقي فيه الركن الخاص بهذه اللغات فارغا نتيجة خلل مطبعي ولاشك ، مما يجعل هذا الجدول الهام عديم الفائدة وحده . وقد وقع بعد ذلك استعراض مختلف اللغات المستعملة فى الدراسة حسب مختلف الكليات المدروسة وهي على التوالي مدرسة ترشيح الاساتذة المساعدين وكليات الآداب والشريعة والحقوق والعلوم ، وكذلك لغة مهنة المستقبل .

ثم وقع الانتقال الى « **المواقف** » تجاه كل صنف من اللغات المستعملة وذلك بابداء الرأي فى المستوى الفردي وفى المستوى القومي ، فعبر الطلبة عما يفضلون من اللغات (الفرنسية والفصحى والعامية والوسطى) وعما يعتبرونه منها أصلح فى الحياة فترددوا فى التفضيل لوجود عدة اعتبارات تتجاذ بهم ، فالتفتح على العالم العصري يدفعهم الى الفرنسية ، والتمسك بالاصول يشدهم الى الفصحى ، واعتبار الواقع القومي يفرض العامية ، والانتماء الى الفكر والثقافة يميل بهم الى عربية وسطى .

لكن اعتبار الفائدة العاجلة فى الحياة يغلب آخر الامر الفرنسية بنسبة تفوق النصف وتليها العربية الوسطى بنسبة الثلث وتتأخر الفصحى عن العامية طبقا لهذا الاعتبار .

اما فى المستوى القومي فان الوسطى تصبح الاولى وتليها الفصحى ثم الفرنسية والعامية . فالطلبة يشعرون ان جعل العامية لغة قومية يحتاج الى جهد كبير ووقت يضيع فى جعل هذه اللغة الشعبية لغة ثقافية .

اما موقف الطلبة من الازدواجية والتعريب فهو جدير بالاهتمام وان دل احيانا على سوء فهم لجوهر القضية : فثلاثة ارباع يفضلون بقاء الازدواجية عموما مما يدل على انهم لا يفرقون بين انواع الازدواجية ولا يشعرون بان الازدواجية السليمة هي التي تكون تفتحا واثراء للغة القومية لا التي تحل فيها لغة أجنبية محل لغة قومية . أما في مستوى التعليم فان النصف يحبذون بقاء الازدواجية والنصف الآخر يشعر بما فى ذلك من ضياع للوقت الذي يذهب فى محاولة امتلاك لغتين فكثيرا مايؤدي ذلك الى العجز فى كلتيهما . الا ان جل الطلبة يفضلون تعريبا جزئيا فى المواد غير العلمية وترك العلوم بالفرنسية لفقد ان العربية ماكان لها من دقة ولافتقارها الى المصطلحات الحديثة التي تزيد كل يوم بسرعة تفوق سرعة تعريبها ، لان دور العرب فى ذلك دور مستهلك لا مشارك فى الانتاج ، على ان المشكل فى نظرهم ليس لغويا بل هو حضاري فمثلما كانت العربية لغة علم يوم كان العلم عربيا فان هذه اللغة لن تكون لغة علم الا عندما يشارك العرب فى الحركة العلمية خلقا وابتكارا . وقد يبدو من الغريب ان نسبة الطلبة الذين ينكرون على العربية الفصحى القدرة المطلقة على التعبير عن الواقع الادبي نفسه تفوق لدى طلبة الآداب نسبة طلبة العلوم ، وما ذلك الا لان طلبة الآداب العربية يعرفون اكثر من غيرهم حدود الفصحى فى التعبير عن الواقع اليومي العصري وهو ما يدفع بعض الادباء الى استعمال مستويات لغوية اخرى تصل احيانا الى العامية . على ان الطلبة يشعرون — اذا مادعت الحاجة يوما الى استعمال العربية الفصحى — بضرورة تبسيط

هذه اللغة وتنقيحها ولاسيما فى مستوى نحوها ورسمها بالشكل وضرورة الحد من تنوع الحروف رسما وهو ما يذكر بمقترحات السيد الأخضر المغربي فى هذا الصدد . ولم ينتبه الى خطر ذلك الا عشر الطلبة الذين شعروا بان كل اصلاح جذري للخط يقود الى فصم الروابط معالماضي ويجعل التراث الضخم القديم فى حاجة الى نشر جديد يتطلب من الوقت والتكاليف والجهود ما يفل العزائم .

وقد وقع تخليص نتائج هذا القسم الكبير الاول المتعلق بآراء الطلبة فى المشاكل اللغوية (ص 190 ــ 1) قبل الانتقال الى تحليل القسم الكبير الثاني المتعلق بالسلوك اللغوي الذي يصور الواقع بصدق اكثر ويكون من المفيد ان يقارن بالاراء .

وقد وقع الاعتماد فى هذا القسم ، جانب الاستجواب ، على تسجيل بعض المحاورات التي جرت بين بعض الطلبة فى موضوع اللغة .

وقد ركز هذا القسم الثاني على اربعة محاور تتعلق باللغة التي يستعملها الطلبة فيما بينهم ، ومع اساتذتهم ومع الادارة ومع افراد الاسرة .

1 ــ تختلف لغة الطلبة فيما بينهم باختلاف الاوساط :

ــ ففي الجامعة ــ بما فيها القسم ــ يغلب استعمال لغة الدرس واضخم نسبة للفرنسية ويليها الخليط العربي الفرنسي الذي تأخذ نسبته فى الارتفاع كلما ابتعد الطلبة عن جو القسم ، الى ان يصبح فى المرتبة الاولى اذا ما انتقلنا من مواضيع الدراسة الى مواضيع الساعة ولاسيما خارج الجامعة . وهذا الخليط يعتمد العامية اكثر مما يعتمد الفرنسية . وان تحليل هذا الخليط لغويا لا يخلو من طرافة وفائدة فى المستويين النفسي واللغوي . فالتحليل العلمي الدقيق لهذه الظاهرة يمكننا من ان نعرف متي ينتقل المتكلم من لغة الى اخرى ولماذا . وقد حاول الكاتب ان يحلل بايجاز بعض النماذج من ذلك (ص 199) . ويمكننا ان نستنتج بصفة عامة ان نزعة الخلط ترجع الى نزعة المجهود الادني ، فالخلط فرار من الصعوبة والبحث ، اذ يستعمل المتكلم اول لفظ يرد على لسانه بقطع النظر عن لغته وذلك لوثوقه من فهم السامع . لكنه عندما يجد نفسه فى ظرف يحتم عليه استعمال مستوى لغوي واحد ، فانه يتعثر ويصبح كلامه ابطأ ومجهوده اكبر ، ولو تكرر الامر لا صبح الكلام بلغة واحدة دون خلط امرا يسيرا . لذا فمن المبالغة فى نظرنا اعتبار الخلط خطر ، لانه مرتبط بظروف معينة ويسهل ازالته بتغيير تلك الظروف . **الا ان هذه الظروف لا تتغير الا بتعريب التعليم والادارة .**

2 ــ ونظرا الى ان حظ الفرنسية فى الدراسة أوفر من حظ العربية فان الفرنسية تطغى كذلك فى حديث الطلبة مع الاساتذة التونسيين لا فى القسم فحسب ولكن حتي فى الراحة وكذلك خارج الجامعة وان انخفضت نسبتها قليلا فى هذه الحالة الأخيرة لصالح الخليط (4) والعامية .

3 ــ ولا يختلف الأمر كثيرا مع الادارة فنظرا الى انها غير معربة ، فان الفرنسية متفوقة حتى فى حديث الطلبة مع المسؤولين الاداريين ، مع الملاحظة ان نسبة الفرنسية تنخفض تدريجيا كلما نزلنا فى سلم المسؤوليات الادارية . الى ان تتغلب العامية عليها مع العمال .

---

(4) نقتصر على لفظ « الخليط » للدلالة على الخليط العربي الفرنسي .

4 — اما فى نطاق الأسرة فان العامية تعود الى المرتبة الاولى بلامنازع متبوعة من بعيد بالخليط ثم بالفرنسية ويتبين من خلال هذا القسم الثاني الكبير ان للطلبة أكثر من لغة . وتستعمل كل واحدة وحدها حينا وممزوجة بغيرها حينا آخر دون ان يكون للطالب الخيار فى ذلك عادة وانما يخضع لحكم الظروف كالمكان والموضوع والسامع وهكذا فان استعمال الفرنسية والعربية الفصحى مقيد بينما استعمال العامية والخليط مطلق تلقائى فى الغالب .

ويستنتج من خاتمة البحث ان الطلبة يعيشون وضعا لغويا حادا هم به شاعرون . وتتمثل حدة هذا الوضع فى انه لا توجد لديهم لغة واحدة قادرة على التعبير عن جميع تجاربها لجميع مخاطبيهم فى جميع الاوساط والمستويات ، مما يجعلهم يشعرون بنوع من التمزق وعدم الرضى والا طمئنان : فالعربية الفصحى اقلها استعمالا رغم قداستها ورغم انها اللغة الرسمية وذلك لانها ابعدها عن الحياة ، مما يجعلها لغة اعتزاز لا يتقنها الا انفار . والفرنسية انسب لكل المستويات لكن جل الشعب لا يفهمها فهي لغة اجنبية يرفض الشعور القومي احلالها محل اللغة القومية . اما العامية فانها قد لا تصلح الا للشؤون اليومية لانها ليست بعد لغة ثقافة .

ونظرا لتكامل هذه اللغات لدى الطالب التونسي ، فمن الطبيعي ان يلجأ الى الخلط بينها فى شيء من الاستسلام لوضع ازدواجي غير طبيعي ولحل السهولة امام مشكل معقد . ولكن يبدو ان نزعة المزج اللغوي ، رغم استفحالها ، قد اخذت تزاحمها نزعة اخرى تتمثل فى استعمال لغة عربية وسطى مزيج من الفصحى والعامية ، تظهر عندما يتحدث المثقفون فى مواضيع جدية وهي شبيهة بلغة رجال السياسة حين يخطبون وهي لغة لم تدرس بعد علميا ، الا انه يبدو لنا انها تخضع اجمالا للخصائص الآتية :

نحوها هو فى الغالب نحو العامية وابرز ما فيه اسقاط الاعراب . وصرفها مزيج من الابنية الصرفية العامية والعربية القديمة . وهذه الخاصية احوجها الى الضبط العلمي لصعوبة الحكم فيها بدون احصاء تواتري . اما معجمها فهو مزيج طريف يملأ فيه المتكلم كل شغور باحسن ما تجود به كلتا اللغتين دون استنكاف من الدخيل عند الحاجة .

وقد ختم البحث برسم مثالي يجعل من الفصحى والعامية والفرنسية قاعدة مثلث ، ينتج فيه عن التقاء الفصحى بالعامية ، لغة عربية وسطى تقابل الخليط الناتج عن العامية والفرنسية . وهذان المستويان يتطوران ليلتقيا فى « **لغة الغد** التي مازالت فى طور المخاض وهي ما يمكن تسميته باللغة العربية العصرية » ، وهي قمة هذا الرسم وغايته . ولكننا لا نرى اين يضع الكاتب لغة الصحافة مثلا ؟ فهي بدون ريب مظهر من مظاهر العربية العصرية رغم انها اقرب الى الفصحى نحوا وصرفا ولا تبتعد عنها الا فى بعض التراكيب وفى جانب من معجمها .

على اننا نود فى خاتمة هذا العرض التنبيه الى امرين يبدو ان لنا من قبيل الخلل فى هيكل البحث : اولهما التفريق بين القسمين الاولين من البحث بينما يمثلان قسمين من محور واحد يمكن ان يقابل هيكليا المحور الاخير . وقد شعر الكاتب نفسه بذلك عندما جعل لهما خاتمة واحدة (ص 190) .

ثانيهما عدم ذكر اللغة الخليط في القسم الاول من البحث لمعرفة موقف الطلبة منها ولاسيما ان مايقابلها وهي اللغة العربية « الوسطى » قد ذكرت مما يضفي على البحث شيئا من التوجيه غير المقصود . لكن هذا البحث يمتاز رغم ذلك بميزتين كبرتين : الدقة في التزام الموضوع واحكام الربط بين مختلف اجزائه مهما دقت .

خاتمـــة العـــرض

يتبين لنا من خلال هذا العرض ان لهذه النشرية مكانة خاصة نظرا الى ان ظهورها صادف كما اسلفنا عودة قضية التعريب في تونس الى الظهور بشكل اشد حدة من ذي قبل . ثم انها – اذ تصور بعض المظاهر من الواقع اللغوي التونسي وتحلل ظواهر هامة منه – تثير عديدا من المشاكل التي لا تقل تعقدا عن هذا الوضع ذاته نظرا لما يطغي عليه من تصارع بين اللغتين العربية والفرنسية وما بينهما من مستويات تتقابل حينا وتلتقي لتمتزج حينا آخر . وان هذا الصراع ليجسم احسن تجسيم التمزق الذي تعيشه البلاد باكملها في جميع الميادين ، في مرحلة انتقالية دقيقة تحاول فيها المحافظة على توازن صعب بقدر ما هو ثري مفيد . هو توازن بين **الاصالة** (5) وما تقوم عليه من ارث حضاري عربي اسلامي لغة وثقافة ، وعقائد وتقاليد ، وبين **العصرية** (5) وما تفرضه من تفتح على العالم الغربي المتمدن وتقبل لثقافته وتقنيته وعلومه واساليب تفكيره وما تتبع ذلك من قيم روحية ومادية كثيرا ما تصطدم بالقيم التقليدية الموروثة هذا التوازن يفرضه وضع تونس التاريخي والجغرافي . ويبدو لنا ان الخوف من فقدان هذا التوازن هو الذي حمل المسؤولين على المحافظة على الازدواجية اللغوية في التعليم والادارة بشكل لا يختلف كثيرا عما كان عليه الوضع قبيل الاستقلال . الا ان ظروفا متعددة الجوانب جعلت هذا التوازن – الذي لم يكتمل ابدا يختل بموضوع تدريجي ، عوض ان يتواصل حتى يبلغ النضج والاكتمال وان هذه البحوث التي حاولنا تحليلها لتدل بوضوح على ان الاعتدال والتوازن مفقودان وهو امر يدعونا الى التفكير في الوضع اللغوي الراهن بكل جد ورصانه لما للغة من ابعاد نفسية واجتماعية وثقافية تجعلها التعبير الحضاري الأمثل .

الطيب البكوش

دار المعلمين العليا الجامعة التونسية

(5) هذان المفهومان لا يمثلان هنا طرفي نقيض وانما تربطهما علاقة تلازم تجعلهما ملتحمين التحاما حركيا يجعل الواحد منهما لا معنى له بدون الآخر .

الخـــلاصـــة

ينتقل هذا العرض فى تحليل نقدي لثلاثة بحوث لغوية متعلقة بالوضع اللغوي المزدوج فى تونس من خلال تعريب وزارة الداخلية واستعمال التلاميذ والطلبة العربية والفرنسية . ويبدو ان الوضع اللغوي فى تونس وضع حركي جدا يطغي عليه « الصراع » غيرالمتكافيء بين العربية والفرنسية فى المستوى اللغوي ، و « التصادم » بين مفهومي « الاصالة » و « التفتح » فى المستوى الايديولوجي ، بما وراء ذلك من بحث عن توازن ثقافي عسير .

RESUME

Arabisation et bilinguisme en Tunisie

Cet exposé est une analyse critique de trois études socio-linguistiques concernant la situation linguistique bilingue en Tunisie, à travers l'arabisation du Ministère de l'Intérieur, l'utilisation de l'arabe et du français par les élèves et les étudiants. Il ressort de l'analyse de ces aspects que la situation linguistique en Tunisie est très dynamique et est caractérisée par la "lutte" inégale entre l'arabe et le français au niveau linguistique, et l' "opposition" entre les concepts d' "authenticité" et d' "ouverture" au niveau idéologique, avec comme toile de fond la recherche d'un équilibre culturel difficile. Bilinguisme de complémentarité et non de concurrence où la langue étrangère l'emporte sur la langue nationale.

SUMMARY

Arabisation and bilingism in Tunisia

This statement is a critical analysis of three socio-linguistic studies about the bilingual linguistic situation in Tunisia, through the arabisation of the home Departement and the use of Arabic end French by pupils and students. From the analysis of these aspects, one can see that the linguistic situation in Tunisia is very dynamical and it is characterized by the unequal "fight" between Arabic and French on the linguistic level, and the « opposition » between the concepts of "authenticity" and "opening" on the ideological level with as a background the research of difficult cultural balance.